



«حصان» للفنانة البريطانية كيت دنوت (برونز - 17×40×21 سنتم)

سعد القرقررة

زكريا محمد *

لدينا شخصية عربية ميثولوجية قديمة تدعى «سعد القرقررة». وهي على علاقة بالشخصية الشهيرة جداً في التاريخ الأدبي «النعمان بن المنذر». إذ يقال لنا بأن سعداً كان أخ النعمان غير الشقيق. لكن هناك من يقول إنه كان مهرجه ومضحكه. وهذا هو مختصر قصته مع النعمان كما يورده المفضل الضبي: «زعموا أن النعمان بن المنذر اتخذ مجلساً قريباً من قصره بالحيرة... وكان للنعمان أخ من الرضاعة من أهل حجر، يقال له سعد القرقررة، وكان من أضحك الناس وأبطلهم، وكان يضحك النعمان ويعجبه... فرزعموا أن النعمان قعد في مجلسه ذات يوم ضاحكاً، فأتى بحمار وحش، فدعا بفرسه اليمحوم فقال: احملوا سعداً على اليمحوم وأعطوه مطرداً، وخلّوا عن هذا الحمار حتى يطلبه سعد فيصرعه. فقال سعد: إنني إذن أصرع عن الفرس، وما لي ولهذا؟ قال النعمان: والله لتحملنه، فحمل على اليمحوم، ودفع إليه المطرد، وخلّى الحمار، فنظر سعد إلى بعض بنيه قائماً في النظارين، فقال: بأبي وجوه اليتامى، فأرسلها مثلاً، فالتقى الرمح وتعلق بمعرفة الفرس، فضحك النعمان، ثم أدرك فأنزل، فقال سعد القرقررة:

نحن بفرس الودي أعلمنا
منا بقود الجياد في السلف
يا لهف أمي وكيف أطقنه
مستمسكا واليدان في العرف
قد كنت أدركته فادركني
للصيد جد من معشر عنف.

أي أدركني عرق من أبائي الذين كانوا عنفاً للخيل، أي لم يكن له فروسية» (المفضل الضبي، الأمثال).

وهكذا فقد رفض سعد القرقررة - الهجري البجراني - أيام كانت حدود البحرين أوسع بكثير من حدودها الآن - أن يطرد الحمار، رامياً المطرد (الرمح القصير)، معلناً أنه وقومه أعلم بغرس النخل (الوادي) منهم بركوب الخيل للصيد: «لأن سعداً كان من أهل الحرائة والزراعة، فهو يقول: نحن بفرس الودي في الدبار والمشارات [المزارع] أعلم منا بجري الجياد» (الميداني، مجمع الأمثال).

وكما نرى من القصة، فنحن أمام شخصيتين مختلفتين: النعمان - الصياد، الذي يصيد على فرسه اليمحوم، وسعد القرقررة الفلاح المزارع. أي أننا مع الانقسام القديم ذاته بين المزارع والصيد، بين قابيل وهابيل، أو بين النعمان وسعد القرقررة.

ونحن نعلم أن النعمان بن المنذر الأسطوري مثيل لأدونيس. فالأثنان على علاقة بزهرة شقائق النعمان. فهذه الزهرة نبتت من دم أدونيس بعدما قتل. أي أن الشقائق هي جروح أدونيس ودمه. وكذا الأمر مع النعمان في ما يبدو. ذلك أن الشقائق هي الدم في العربية: «وقيل: النعمان: اسم الدم، وشقائقه: قطعه، فشبهت حمرتها بحمرة الدم، وسميت هذه الزهرة شقائق النعمان، وغلب اسم الشقائق عليها» (لسان العرب).

وهكذا، فشقائق النعمان هي دم النعمان. إنها في الواقع جراحه كما هو حال أدونيس. أكثر من ذلك، فإن أدونيس ذاته يوصف بأنه «النعمان» عادة، عليه، فنحن في قصة النعمان وسعد القرقررة

الضحك وخلقه. أما اسم النعمان، فيشير إلى الدم والقتل كما رأينا.

لكن اسم سعد لا يُفصح فقط عن سعادته، بل يشي بعلاقته بالابل أيضاً. إذ أن القرقررة صوت البعير: «قرقر البعير قرقررة: هذر، وذلك إذا هدل صوته إلى الإله «سعد» العربي الشهير.

إذن، فالنعمان قتل مثل أدونيس، ومثل أوزيريس أيضاً. أما سعد فيبدو أنه الناجي لا القاتل. وفي المثل العربي: «أنج سعد فقد هلك سعيد». ولأنه ناج فهو سعيد. واسمه يعكس سعادته من طرفه. فمن ناحية أولى، هو «سعد» من السعادة، ومن ناحية ثانية هو «مقرقر»، أي ضاحك، سعيد، وخلي النفس. إذ القرقررة مثلها مثل الكركرة تماماً تعني الإغراق في الضحك: «القرقررة: الضحك إذا اشتغرت فيه ورُجِع» (لسان العرب)، أي الضحك العالي المجلجل.

وليس غريباً أن يعكس اسم سعد القرقررة طبيعته، فأسماء شخصيات الأساطير تعكس طبيعتها دوماً. فجديمة الأبرش مثلاً مرتبط بالجذام وبالبشر، أي بالبرص. أما سعادة سعد، فجعلته مهرجاً. والنهريج نوع من اختراع

على كل حال، حين نكون مع الضحك والقرقررة، فنحن مع سهيل اليماني الذي يوصف بأنه «الفحل» أي الجمل الذكر. بالتالي، فهسهيل فحل ضاحك أيضاً. ولأن سهيلاً جمل سعيد، فإن النظر إلى سهيل يورث السعادة والسورور: «النظر إلى القطب الجنوبي وإلى سهيل معاً في وقت واحد يزيل المألخوليا، وذلك بأن ينظر العليل إلى هذا القطب، ويدم النظر إليه ليلة بعد ليلة دوماً كثيراً.

وقد جُرّب فصخ، وهذا مما يدل على أن لهذا القطب وهذا الكوكب خاصية في إحداث الطرب والسورور في الناس،

ولذلك أن الرنج لما كانوا متقاربين من مدار سهيل، كان فيهم الطرب الشديد» (التيفاشي، سرور النفس).

وهناك ما يشير إلى أن الإله العربي (سعد) على علاقة بالجمل. بل إن الجمل يبدو حيوانه. من أجل هذا، فقد ذهب البدوي إلى سعد كي يجمع له شمل قطع جماله، لكن هذا بالصدفة لم يحصل، فغضب البدوي ولعن سعداً:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
ففرقنا سعد، فلا نحن من سعد
وما سعد إلا صخرة بتنوفة
من الأرض لا تدعو لغى ولا رشد
ومن الواضح أن البدوي ذهب إلى سعد ليجمع شمل إبله لأن سعد جمل، بل رئيس الجمال كلها. أما اسم سعد

القرقررة، فيشير بوضع إلى أنه جمل. فالقرقررة هي صوت البعير. بالتالي فاسمه يعني «سعد الجمل». عليه، فسعد وسهيل اليماني فحلان من الإبل. في كل حال، فقد حاول النعمان أن يحول سعداً من فلاح إلى صياد يركب اليمحوم ليصطاد حمار الوحش. لكن سعداً رفض قائلاً:

نحن بفرس الودي أعلمنا
منا بقود الجياد في السلف
لقد أصر على أن يكون مزارعاً سعيداً
ناجياً.

إذن، فسعد قرين النعمان، لكنه معاكسه أيضاً وأول. فهو ناج فيما النعمان قتل. وهو جمل زراعة فيما النعمان فرس صيد. وهو باسم ضاحك في حين أن النعمان كشر كئيب.

سعد، إذن، هو الكوميديا العربية والنعمان هو التراجيديا العربية.

* شاعر فلسطيني